الفصل الثانى

لعنة الفراعنة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثانى

لعنة الفراعنة

هل هناك حقا شيء اسمه لعنة الفراعنة ؟.

الجواب على هذا السؤال يستلزم منا معرفة وإحصاء عدد الذين ماتوا حقًا بسبب تدنيسهم للقبور الفرعونية وهتكهم لحرمة مومياتها . وفى الواقع لا توجد أبدًا مثل هكذا إحصائية، بل يستحيل وجودها، لأن أغلب الذين عبثوا بالقبور المصرية كانوا من اللصوص، وكان ذلك غالبًا فى العهود القديمة، وأحيانًا بعد فترة ليست بقصيرة على دفن المومياء وإغلاق القبر، وبطبيعة الحال لا أحد يعلم ماذا جرى لهؤلاء اللصوص .. كيف ماتوا ؟ هل قرصتهم بعوضة أم لدغتهم كوبرا ملكية ؟

لا أحد يعلم جواب هذه الأسئلة طبعًا، لكننا نعلم بأن حجم الانتهاكات لقبور المصريين القدماء كان من الانتشار والرواج والسعة بحيث أن مومياوات الفراعنة كانت تملئ أسواق مصر، وكانت الكثير من الناس يرتدون لفائفها كملابس.

وخير شاهد لنا على ذلك هو الرحالة عبد اللطيف البغدادي، وما يميز هذا الرجل ما يتصف به من أمانة وعلميَّة ودقة فى كتاباته بعيدًا عن الخرافات التى كانت رائجة فى زمانه، ويقول بهذا الخصوص :

" ومما يقوى أطماعهم (اللصوص) ويديم إصرارهم أنهم يجدون نواويس تحت الأرض فسيحة الأرجاء محكمة البناء، وفيها من موتى القدماء الجم الغفير والعدد الكثير، قد لفوا بأكفان من ثياب القنب لعله يكون على الميت منها زهاء ألف ذراع، وقد كُفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والإصبع فى قطع دقاق، ثم بعد ذلك تُلف جثة الميت جملة حتى يرجع كالحمل العظيم .

ومن كان يتتبع هذه النواويس من الأعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الأكفان إذا وجد فيه تماسكًا، اتخذه ثيابًا أو باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين .

ويوجد بعض موتاهم فى توابيت من خشب الجميز الثخين، ويوجد بعضهم فى نواويس من حجارة أما رخام أو صوان وبعضهم فى أزيار مملوءة عسلا .

وخبرنى الثقة أنهم بينما كانوا يتقفون المطالب عند الأهرام صادفوا دنًا مختومًا ففضوه فإذا فيه عسل، فأكلوا منه فَعَلق فى أصبع أحدهم شعر فجذبه فظهر لهم صبى صغير متماسك الأعضاء ورطب البدن عليه شيء من الحلى والجواهر .

وأما ما يوجد فى أجوافهم وأدمغتهم من الشيء الذى يسمونه موميا فكثير جدًا، يجلبه أهل الريف إلى المدينة، ويباع بالشيء النزر ولقد اشتريت ثلاثة رؤوس مملوءة منه بنصف درهم مصرى ".

يا للعجب! .. عبد اللطيف البغدادى .. فى سنة ١١٩٨ ميلادية أشترى رؤوس ثلاثة مومياوات من سوق القاهرة بنصف درهم مصرى ! . وهذا يدعو إلى تخيل حجم التدنيس والانتهاك الذى تعرضت له المقابر الفرعونية على مدى أربعين قرنًا .

إذا كان تدنيس وسرقة القبور الفرعونية فى العصور القديمة بهذه السعة والانتشار كما ورد سابقًا، فلماذا إذن لم نسمع باللعنة إلا فى العصر الحديث، إلا مع فتح قبر الملك توت عام ١٩٢٢ ؟

الجواب ببساطة هو أن تلك اللعنة لا تصيب سوى منتهكى قبور الملوك والكهنة وليس عامة الناس، فاللعنات لها متطلبات ؛ من طلاسم وتعاويذ ووصفات سحرية لا يقدر عليها سوى الملك والنبلاء والكهنة .

ولهذا فإن اللعنات لم تكن توضع إلا فى قبور علية القوم، خصوصًا فى القبور التى تحوى كنوزًا عظيمة مثل قبر الملك توت . وربما تعرض سارقو أمثال هذه القبور للمرض والموت بسبب اللعنة فى العصور القديمة، لكننا لم نسمع عن ذلك لأنهم أولا كانوا يعملون بسرية تامة .

ثانيًا كانت عوائلهم لا تجرؤ حتما بالحديث عن كيفية وسبب موتهم خشية أن يقوم الملك أو الوالى بالقبض عليهم ومطالبتهم بتسليم الكنز.

ما المقصود بلعنة الفراعنة :

تشير لعنة الفراعنة إلى الاعتقاد بأن أى شخص يزعج مومياء لشخص مصرى قديم خصوصا لو كان فرعون فعليه لعنة .

وقد تسببت هذه اللعنة التى لا تفرق بين اللصوص وعلماء الآثار ذو النية الحسنة الحظ السيئ أو المرض أو الوفاة .

منذ منتصف القرن العشرين، ناقش العديد من الكتاب والأفلام الوثائقية تلك اللعنة الناجمة عن أسباب علمية تفسيرية مثل البكتيريا أو الإشعاع.

وبالنظر إلى طريقة تناولهم للحكايات المصرية عن لعنة المومياء، وفى المقام الأول فى الثقافات الأوروبية، والتحول من السحر إلى العلم لشرح اللعنات، مرورًا بتغيير استخداماتها من اضطراب القتلى لتسلية الجماهير فى فيلم رعب، يظهر للرائى أشارتهم إلى أن اللعنات المصرية فى المقام الأول عبارة عن ظاهرة ثقافية وليست علمية على سبيل الحصر.

وبعيدًا عن تناول الكُتَّاب والسينمائيين لهذه الظاهرة، ومن خلال السرد التاريخى، هناك ثمة حالات عرضية من اللعنات القديمة الحقيقية تظهر داخل أو على واجهة قبر كما هو الحال بالنسبة للمصطبة (مدفن مصرى قديم) من (خينتيكا أخي) من السلالة السادسة فى سقارة.

تظهر على ما يبدو كتوجيه مباشر نحو الكهنة لحماية المقبرة بعناية والحفاظ على طقوس الطهارة بدلًا من التحذير من اللصوص الممكَّنين.

وعلى الرغم من أن قصص اللعنات تعود إلى القرن التاسع عشر، إلا إنها تضاعفت فى أعقاب اكتشاف) هوارد كارتر(Carter Howard لمقبرة (توت عنخ آمون).

كان الملوك يحيطون أنفسهم عادة بالعلماء والحكماء الذين يعرفون الحقائق العلمية، ويتنبؤون بموعد الفيضان قبل غيرهم لم يكن ينظر إليهم كعلماء بل كأشباه آلهة، وجعل المصريون يسبغون عليهم صفة الإلوهية .

حتى شاعت المعرفة العلمية بين الناس إلى حد ما، وبدؤوا يعرفون معلومات عن التقويم والرياضيات والهندسة والفلك، عندئذ ضعف إيمانهم بالآلهة والأشباح بعض الشيء . وأدى هذا إلى سقوط الهالات من فوق رؤوس الملوك عند نهاية الدولة القديمة، ونُظِر إلى زوسر وخوفو على أنهم من البشر أصحاب القدرات الخارقة، واختفت صورة الآلهة من فوق العروش المذهبة، ولم يعد المصريون يؤمنون بالقدرات الخارقة لموتاهم .

نتيجة لهذا اضطر الكهنة والسحرة إلى الاعتماد على معارفهم التكنولوجية للإبقاء على السيطرة والاحتفاظ بالتخويف الذى كانت اللعنة تحققه قديمًا، معتمدين على عقيدة المصريين فى حياة بعد لموت، لهذا فسقوط الحجر من سقف المقبرة على رأس اللص عندما امتدت يده إلى مجوهرات المومياء لا يستبعد أن يكون نتيجة لنوع من الفخاخ التى نصبها الكهنة لحماية المومياء من اللصوص .

ولا شك أن الفراعنة كانوا يبذلون جهودًا لحماية وتأمين مقابرهم بعد موتهم، حتى يرقدوا فى سلام إلى أن تدب الحياة مرة ثانية فى أجسادهم .

وإذا كانت أسطورة لعنة الفراعنة قد ارتبطت أساسًا بـ (توت عنخ آمون)، مع أنه ماتِ فجأة وهو صغير قبل أن يعطى اهتمامه لتأمين مدفنه ؛ فإن لهذا ما يفسره حيث أنه كان نتيجة للموت المبكر الذى مُنى به هذا الفرعون، فإن دفنه وإعداد مقبرته وحمايتها بالوسائل المختلفة أُوكِلت بشكل كامل إلى الكهنة والسحرة الذين لا شك أنهم قد استخدموا كل علمهم وخبراتهم فى ابتكار أساليب حماية المدفن الخاص بفرعون الذى صادف خاتمة عنيفة لحياته وهو فى الثامنة عشرة من عمره .

بداية الحديث عن لعنة الفراعنة :

فى الحقيقة أن لعنة الفراعنة لم تبدأ مع فتح مقبرة (توت عنخ آمون) بل كانت هناك قبل هذا بقرن من الزمان على الأقل.

ولقد ارتبطت فعليًا باثنين من مشاهير العلم ؛ أو ربما أشهرهم على الإطلاق.

حياة تشامبليون القصيرة :

ذات صباح دافئ، من شتاء عام ١٧٩٩ م، وبمصادفة رتبها القدر حتمًا، وأثناء الحملة الفرنسية على مصر، عثر جندى فرنسى على حجر فى مدينة رشيد المصرية، يعتبره علماء الآثار، فى يومنا هذا، أعظم كشوف القرن على الإطلاق . فذلك الحجر الذى أطلقوا عليه اسم (حجر رشيد)، والذى هو من مادة البازلت، كان يحوى كتابات بثلاث لغات هى : اليونانية القديمة، والقبطية أو الديموطيقية، والهيروغليفية.

وتعود الأهمية الأثرية البالغة لهذا الحجر، إلى أنه حتى تم كشفه، كانت

الهيروغليفية بالنسبة للعالم كله مجرد نقوش منظمة، يسعى العلماء لاستنتاج أو استنباط ما تعنيه، دون أن يتمكنوا من حل رموزها، أو تحديد منطوقها، بأى حال من الأحوال .

وعندما تم كشف (حجر رشيد)، وجد الأثريون أن الكتابة اليونانية، هى ترجمة أمينة ودقيقة للكتابة الديموطيقية، الموجودة على وجه آخر منه.

وكان هذا يعنى- من باب المنطق - أن الكتابة الهيروغليفية، هى أيضًا ترجمة أمينة ودقيقة للنص نفسه.

وعلى الرغم من أن وسائل الاتصال كانت ضعيفة للغاية فى ذلك الزمن، مقارنة لما أصبحت عليه، لكن سريعًا ما طار الخبر إلى أوروبا كلها، فانتعش علماءها، والتهب حماسهم، والتهبت عقولهم، وهم يجدون أمامهم فرصة نادرة لكشف أسرار وغموض اللغة الهيروغليفية، مع كل ما قد يحمله هذا من كشف لتاريخ مصر القديمة، وفراعنتها، وعلومها، وأسرارها الخفية، التى لم يصل العلم الحديث إلى بعضها حتى لحظتنا هذه.

ولأن (نابليون بونابرت)، الذى كانت حملته تحتل مصر، فى ذلك الحين، كان مغرمًا بالعلم والعلوم، ويرغب دومًا فى أن يرتبط عصره بالكشوف العظيمة فى كل المجالات، فقد سارع بنقل الحجر إلى باريس، حتى تتم دراسته، على أيدى الخبراء هناك.

وبكل شغف ولهفة أقبل العلماء على فحص الحجر، وتدوين ما عليه من كتابات ونقوش، ثم راحوا يدرسون، ويفحصون، ويمحصون، ويبأسون أيضًا.

فالأمر لم يكن-أبدًا بالسهولة التى أوحى بها منذ البداية . فلا أحد منهم كان يعلم من أين يبدأ الترجمة!!.. أمِن اليمين، أم اليسار، أم من أعلى، أو أسفل.

ولسنوات وسنوات، وعلى الرغم من كل ما بذله العلماء من جهدٍ، فقد فشلت كل محاولاتهم لترجمة اللغة الهيروغليفية، وكشف أسرارها حتى جاء (شامبليون) .

(چان فرانسوا شامبليون ١٧٩٠-١٨٣٢) رائد الباحثين فى الحضارة المصرية، كان ميلاده نبوءة لأحد العرافين حين قال لوالده أنه سينجب : " ضوءًا ينير الطريق للأجيال القادمة "، امتاز بالذكاء الخارق، وقوة الحفظ منذ أن كان فى الخامسة من عمره حفظ التوراة كاملة .

وكان من العلماء الشبان الذين عشقوا الحضارة الفرعونية منذ نعومة أظافرهم، والذين جذبهم بشدة (حجر رشيد)، وكل ما يُمكن أن يمنحه من كشوف هائلة، لذا فقد اتخذ قرارًا جريئًا، بأن يتفرغ تمامًا لمهمة فحصه، وترجمته، وكشف أسرار اللغة الهيروغليفية، التى ستساعد العالم كله على الإطلال من نافذة هائلة، على حضارة تعد الاعظم بين كل الحضارات، التى شهدها العالم القديم .

ولقد بدأ (شامبليون) مهمته، وهو فى الحادية والعشرين من عمره، وتفرغ لها تمامًا، وراح يوصل الليل بالنهار؛ بحثًا عن طرف خيط، يمكن أن يقوده إلى حل اللغز.

ثم وعلى خلاف الآخرين؛ لاحظ (شامبليون) أن عدد أسماء الملوك، فى النصين اليونانى والديموطيقى، متطابقين تمامًا مع عدد الخراطيش فى النص الهيروغليفى، لذا فقد استنتج من هذا أن الخراطيش تحوى داخلها أسماء الملوك. ومن هنا انطلق (شامبليون) . وبحسبة بسيطة حدَّد أسماء الملوك، فى النص الهيروغليفى، وترجمها، وسجل حروفها، وانطلق منها إلى باقى النص.

وبعد إحدى عشر عامًا، وفى عام ١٩١٦م، توصل (شامبليون) إلى أعظم كشوف الزمان، فى علم الآثار والتاريخ القديم، وحل رموز اللغة الهيروغليفية. وفتح أنظار العالم كله على أسرار الفراعنة.

وفى ليلة وضحاها، أصبح (شامبليون) أعظم علماء عصره، وهو بعد فى الثانية والثلاثين من عمره، وأحاطت به الشهرة من كل جانب .

وفجأة، تفجَّرت فى وجهه اللعنة. فعلى حين غرة، ودون أسباب واضحة، أصيب (شامبليون) بشلل رباعى، وحمى غامضة، وراح يهذى ويرتجف، ثم لم يلبث أن قضى نحبه، تاركًا خلفه من يروى هلاوسه الأخيرة.

وبالمصادفة، كانت كلها عن الفراعنة، وانتقام الفراعنة، كان هذا عام ١٩٣٢م، وهذا ما دونته المراجع التى تحدَّثت عن تاريخ لعنة الفراعنة، السابقة لاكتشاف مقبرة (توت غنخ آمون).

تيودور بلهارز:

لا تقف تلك اللعنة الوهمية عند أشهر عالم آثار وإنما تصل إلى ما هو أبعد من هذا إلى (تيودور بلهارز)، أستاذ علم التشريح المرضى، ومكتشف أشهر مرض يصيب المصريين، منذ أيام الفراعنة..البلهارسيا..

وقد كان (تيودور بلهارز) قد قضى شطرًا طويلًا، فى حياته القصيرة، يطارد تلك الدودة القاتلة، التى تخترق أجساد المصريين، وتستقر فى أكبادهم، وتدمرهم تدميرًا بطيئًا منتظمًا، وتسلبهم نشاطهم وحيويتهم: ثم حياتهم فيما بعد.

وبعد تلك السنوات خطرت فى ذهن (بلهارز) فكرة عجيبة . تُرى متى بدأت (البلهارزيا) فى حربها مع المصريين؟!..

وفى سبيل إجابة السؤال، لجأ (بلهارز) إلى أمر لم يخطر أبدًا ببال أحد، إذ انتقل بأبحاثه من الموتى المصابين بالمرض إلى مومياوات الفراعنة القدامى، وبالذات تلك الخاصة بالعمال والمزارعين، الذين تدفعهم طروف عملهم للخوض فى مياه النيل طوال الوقت.

أيامها؛ لم يكن للآثار قيمتها الحالية، ولم تكن هناك تشريعات قوية لحمايتها والحفاظ عليها، لذا كان من الممكن أن يشترى (بلهارز) بعض المومياوات التى يتم العثور عليها فى الجنوب أثناء أعمال الحفر والبناء التى تجرى على مناطق المقابر القديمة، وأن يُجرى عليها تجاربه .

وكان هذا يعنى بالطبع نبش قبور القدامى، واستخراج مومياواتهم، بل وتشريحها والتمثيل بها أيضًا.

ولقد نجحت تجارب (تيودور بلهارز) إلى حد كبير، إذ أثبت بالفعل أن المصريين القدامى أصابتهم (البلهارسيا)، منذ آلاف السنين، بل وعُثِر على بعض الديدان المحنطة داخلهم بالفعل.

ولكن فجأة، وقبل أن يسجل (بلهارز) تجاربه رسميًا وعلميًا، أصابته حمى مجهولة، حمى لا تشبه التيفوئيد، أو أية حمى معروفة أخرى. ومع الحمى التى لم يتم تشخيصها أو علاجها بالطبع، راح (بلهارز) يهذى، ويصرخ، ويهذى، وتراوده هلاوس عجيبة حول المومياوات التى قام بتشريحها، والتى بدت له وكأنها قد عادت إلى الحياة، لتنتقم من ذلك الذى أقلق راحتها، ومثَّل بها، ومات (تيودور بلهارز)، عام ١٨٦٢م، وهو بعد فى السابعة والثلاثين من عمره، بتلك الحمى المجهولة، التى لم يتم تشخيص أعراضها حتى يومنا هذا.

وفى هذه المرحلة، لم يكن يحاول العلماء وضع تفسيرات علمية أو منطقية، لما أصاب (شامبليون) أو (بلهارز)، ربما لأنهم كان لديهم شغفًا للتأكد من وجود لعنة الفراعنة، بأكثر من اهتمامهم بتفسيرها.

ولكن هذا كان دأب الجميع، فى تلك المرحلة الزمنية، لأن الفكرة نفسها بدت جذابة ومثيرة، خاصة وهى ترتبط بعالم الأسرار، وحمى السحر والتنجيم والغموض.

ودون أية دلائل علمية أو تاريخية، صدرت عدة مراجع، تنسب موت عشرات المشاهير إلى لعنة الفراعنة، التى صارت صرعة النصف الأول من القرن العشرين.

حتى (يوليوس قيصر) نفسه، ادعوا أن لعنة الفراعنة قد طاردته، وأصابت عقله بحمى جنونية، دفعته إلى تلك الأفعال الديكتاتورية، التى انتهت بمقتله واغتياله، على يد مجموعة من المقربين له، وعلى رأسهم ربيبه (بروتس)، وأصيب الناس بالضجر والملل، من هذه الكتب السخيفة، وقرَّروا تجاهلها فجأة، فانخفضت مبيعاتها إلى حد كبير، وبدا وكأن لعبة لعنة الفراعنة هذه قد بلغت نهايتها .

اكتشاف لعنة الفراعنة:

تعود البداية إلى عام ١٩١٥ عند اكتشاف مقبرة الملك (أمنحتب الثالث) شكل رقم (٣)، فقد انشغل (هوارد كارتر) مكتشف مقبرة (توت عنخ آمون) بفكرة موضوع لعنة الفراعنة . وقد تم اكتشاف هذه المقبرة عن طريق المحامى الأمريكى (تيودور دافيد) وهو ليس أثريا لكنه عمل فى وادى الملوك مع الأثرى الانجليزى (إدوارد راسل ايرتون) . وقد وجد صورة لطبق طائر فى أحد النقوش المرسومة على حوائط هذه المقبرة .

ومن هنا انتشرت الشائعات بكثرة فى العالم بأن الأطباق الطائرة ظهرت فى مصر وقد سجلها الملك (أمنحتب الثالث) لدرجة أن بعض الناس بدؤوا يقولون بأن زوار السماء أو الفضائيين هم بناة الأهرامات واتخذوا مبررات كثيرة خاطئة وهذا كله يرجع إلى هذا الشكل البيضاوى والذى يشبه الأطباق الطائرة .

ولكن من الناحية العملية فلقد ارجع بعض من العلماء أن هذا الطبق الطائر هو فى الواقع (كرات البرق) وهى ظاهرة طبيعية نادرة والتى تظهر فيها مضيئة وتكون قريبة من الأرض، وقد تُرجم نص المقبرة حديثًا كالتالى : (إنها لعنة أمون وأنها ظاهرة غريبة على المصريين) .

شكل رقم (٣)

الملك أمنحتب الثالث

شكل رقم (٤)

قناع الفرعون توت عنخ آمون .. والكوبرا الملكية اعلى التاج ..

وفى تلك الفترة وخاصة فى عام ١٩١٥ م كان قد تعرف الأمريكى (تيودور دافيد) على الإنجليزى الباحث عن مقبرة (توت عنخ آمون) (هوارد كارتر)، وقد دخل بنفسه هذه المقبرة وشاهد هذا النقش، وأخذ يقرأ ما كتبه العلماء عن هذا اللغز من أراء مختلفة، وتشير كل الدلائل فى تاريخه مع المقربين منه بأنه كان من المصدقين لكلمة لعنة حتى قبل اكتشافه لـ (مقبرة توت عنخ آمون) .

وقد بدأت أسطورة لعنة الفراعنة عند افتتاح مقبرة) توت عنخ آمون (عام ١٩٢٢م حيث أخذت مجرى آخر .

وبدأت حكاية اللعنة بعصفور الكناري الذهبى الذى حمله (كارتر) معه عند حضوره إلى الأقصر، وعندما اكتشفت المقبرة أطلقوا عليها أول الأمر اسم (مقبرة العصفور الذهبي) .

وقد وضع مساعده (كالندر) العصفور فى الشرفة ليحظى بنسمات الهواء، ويوم افتتاح المقبرة سمع (كالندر) استغاثة ضعيفة كأنها صرخة إشارة فأسرع ليجد ثعبان كوبرا يمد لسانه إلى العصفور داخل القفص، وقتل (كالندر) الثعبان ولكن العصفور كان قد مات .

وعلى الفور قيل أن (اللعنة) بدأت مع فتح المقبرة حيث أن ثعبان الكوبرا يوجد على التاج الذى يوضع فوق رأس تماثيل ملوك مصر شكل رقم (٤).

وعند افتتاحهم للمقبرة كان أول ما لفت انتباههم نقوش مكتوبة على لوح – اختفى بعد ذلك – تقول " سيضرب الموت بجناحية السامين كل من يعكر صفو الملك " هذه هى العبارة التى وجدت منقوشة على مقبرة (توت عنخ آمون) والتى تلا اكتشافها سلسلة من الحوادث الغريبة التى بدأت بموت كثير من العمال القائمين بالبحث فى المقبرة وهو ما حير العلماء والناس، وجعل الكثير يعتقد فيما سمى

ـ (لعنة الفراعنة)، ومن بينهم بعض علماء الآثار الذين شاركوا فى اكتشاف أسرار لفراعنة.

إن كهنة مصر القدماء قد صبوا لعنتهم على أى شخص يحاول نقل تلك الآثار من مكانها، حيث قيل: إن عاصفة رملية قوية ثارت حول قبر (توت عنخ آمون) فى اليوم الذى فتح فيه، وشوهد صقر يطير فوق المقبرة ومن المعروف أن الصقر هو أحد الرموز المقدسة لدى الفراعنة .

وهذه كانت بداية انتقام الملك من الذين أزعجوه فى مرقده . ومع هذا الاكتشاف التاريخى بدأت سنوات من العذاب والعرق واليأس .